محاضرات في أدب المركز والهامش 2019-2020

المحاضرة الخامسة – مركزية المخيال الأوربي والحضور الهامشي للآخر العربي-الإسلامي

إذا حددنا هذا الآخر جغرافيا بالفضاء الإسلامي، بحكم انتمائنا إليه، وتاريخيا بالإرث الأندلسي غربا باعتباره نموذجا إنسانيا راقيا لتفاعل حضارتين والإرث المغولي شرقا بعدّه ظاهرة حضارية تبين شغف الغالب باتباع المغلوب، فإننا سنجد أنفسنا حين تقييم حضور هذين الفضائين الحضاريين في تشكيل الهوية الأوربية أمام مواقف تنوس بين استهجان وطمس لتنتهي في الأخير إلى بعض من الإعتراف. ولنبدأ بدراسة موقف الإستهجان الذي رأى في الإسلام الأندلسي والمغولي عائقا حال دون أن تحقق أوربا الناشئة ذاتها.

1- موقف الإستهجان:

يمكننا أن نحصره في ثلاثة مواقف لرجال لهم باع طويل في محاولة التأسيس لعلموية المعارف الإنسانية، ألا وهما المؤرخان فرناند بروديل وهنري بيرين والأنتربولوجي و كلود ليفي ستروس.

- Fernand Braudel (فردينان بروديل):

في كتابه " نحوُ الحضارات " الموجه أصلا إلى الطلبة الثانويين والذي يعد كتابا بيداغوجيا بالدرجة الأولى، يتعرض بروديل إلى الحضارة الإسلامية ومدى مساهمتها في بعث النهضة الأوربية، فيعمد إلى شيء من الهزل حين يتبوأ مقعد الأستاذ ويروح يوزع الدرجات والملاحظات على بعض من الإسهامات العلمية العربية كالبصريات والكيمياء بين ممتاز وجيد جدا.[1] وإن جاء ذلك في سياق تقييمه للحضارات الإنسانية إلا أنه يخفي موقفا مركزيا ونرجسيا يطل من خلاله على ما حققته الحضارة الإسلامية وكأنه بصدد التعامل مع ورقة اختبار تلميذ استطاع أن يحل مجموعة معادلات رياضية بذكاء ومهارة .ومثل هذه النظرة تعزز التوجه نحو تفخيم الأنا الأوربي وتقزيم دور التفاعل الثقافي بين الحضارات في تحقيق التواصل الحضاري في شكل دورات تاريخية وحصر بيان التقدم الإنساني في عامل تاريخي – جغرافي محدود بأوربا .إلا أن العطاء الإسلامي الأندلسي ومساهمته في تحرير العقل الغربي من هيمنة الأسطورة لا يمكن حجبه وهو ما اضطر بروديل إلى الاعتراف بأن كتابات ابن رشد كانت الوقود الذي أجج الثورة الفكرية الأوربية في القرن الثالث عشر،[2] دون دخول في أي من التفاصيل .والحقيقة أن المؤلف حينما خط كتابه هذا عمد إلى تقسيمه إلى فصول ، كل فصل مخصص لحضارة معينة، معتمدا الحيز الجغرافي كفاصل بينها؛ ففي الفصل المخصص للحضارة الإسلامية يسهب الكاتب في التأريخ لهذه الحضارة من منطلق أنها غريبة وأجنبية وإذا ما تعرض إلى التفاعل الحضاري فباقتضاب، أما الفصل المخصص لتاريخ أوربا، فهناك تعتيم كلي عن أثر هذا التفاعل في نشأة الهوية الأوربية .وتفصيل ذلك أن بروديل، وفي معرض حديثه عن التفكير العلمي في أوربا، يتولى

[1] Braudel, Fernand, Grammaire des civilisations, Flammarion, Paris, 1993, p.113
[2] Ibid, p.127

تحليل التطور العلمي الأوربي باحثا عن سبب انبثاقه في سياق أوربي بحت، مستشهدا بمقولة للكيميائي Joseph Nedhan (جوزيف ندهان) والتي مفادها أن" أوربا لم تكتف فقط بإبداع العلوم وإنما أبدعت علوما عالمية " ويضيف بروديل" ولقد أبدعتها بمجهود يكاد يكون أوربيا "ثم يتساءل بعدها " لماذا لم يكتمل هذا الإبداع في إطار حضارات سابقة في الصين وانطلاقا من الإسلام؟[3] "وبحثا عن إجابة على هذا السؤال في الصفحات التالية، باءت كل جهودي بالفشل .بل إن ما استوقفني هو محاولة التأريخ للعلم " الغربي – "والمصطلح لبروديل –انطلاقا من محطات غربية بحتة دون أدنى إشارة إلى ظاهرة التفاعل الحضاري؛ فالعلوم الغربية وابتداء من القرن الثالث عشر لم تعرف سوى ثلاث محطات تأويلية :التأويل الأرسطي والتأويل الديكارتي –النيوتني الذي أسس للعلوم الكلاسيكية وأخيرا نظرية أنشتاين النسبية التي دشنت العلوم المعاصرة.[4] وبنفس اللغة الإقصائية، يستعير بروديل أهم التطورات في ميدان الرياضيات والتي عددها أحد مؤرخي هذا العلم مركزا على خمس محطات وهي محطة الهندسة التحليلية لـ Fermat (فرمات) وديكارت و علم الحساب لـ Fermat والتحليل التوفيقي وديناميكية Galilée(غاليلي) و نيوتن وأخيرا جاذبية نيوتن، [5] مع إعراض تام عن المحطة العربية–الإسلامية والتي كانت حلقة مهمة في تطوير الرياضيات من علوم تأملية إلى علوم دقيقة تحتفي بترجمة الأشكال الهندسية إلى أرقام ومعادلات على خلاف ما ورثه الأوربيون من حصر يوناني للرياضيات في مفاهيم هندسية خالصة.[6] و في موضع آخر من الكتاب، لا يخفي بروديل مركزيته حين يصف اكتساح الإسلام لأوربا بين القرنين 11-7 بالكارثة التي عطلت إلى حين عملية تأقلم المسيحية مع العالم الروماني وتثبيت بنيتها الهرمية.[7]

والسؤال المنهجي الذي يطرح نفسه بإلحاح :هل من حق الأكاديمي أن يتمترس بفضائه الحضاري وأن يقيم بالسلب عوامل خارجية ساهمت بشكل أو بآخر في إعادة صياغة هويته الحضارية وذلك انطلاقا من موقف الانتماء؟ هل بإمكان هذا الأكاديمي أن يكون موضوعيا حين ينطلق من داخل ذاته الحضارية في تقييمه للتقاطعات التاريخية مع حضارات أخرى؟

2 –موقف الطمس:

إن من بين من حاول طمس الدور التاريخي للإسلام الأندلسي في نشأة النهضة الأوربية الحديثة:

أ– Gerard Leclerc (جيرار لوكلير):

[3] Braudel, Grammaire, p405-406
[4]ا Ibid, p.407
[5] Ibid, p.408
[6] Hunke, Sigrid, Le soleil, d'Allah sur l'Occident, Albin Michel, Paris, 1997, p.104
[7] Braudel, Grammaire, p.375

الذي يؤكد في كتابه " العولمة الثقافية" أن مرور أوربا من ثقافة تقليدية إلى ثقافة حداثية هو محصلة لتحولات داخلية خاصة بالثقافة والمجتمع الأوربيين.[8] فتحديث أوربا كان عملية تحصيل لتفاعل مجموعة عوامل داخلية .هذا النفي لتفاعل الثقافات يوحي إلى أن الحداثة الأوربية قد ولدت من فراغ، فهي لا تدين لثقافة الآخربأي شيء، وكل إنجازاتها إنما هي نتاج عبقرية حضارتها .وهذه القطيعة الحضارية المفتعلة دفعت الكاتب إلى تعزيز الحدود الوهمية من خلال تكريس النظرة الثنائية) داخل – خارج (عبر تعريفه للتغريب بأنه عملية تحديث تتلقاها الحضارات غير الغربية على أنها مجموعة أنماط حياة غربية وأجنبية يجب أن تستبطنها[9] .

ب –Max Weber (ماكس فيبير):

وهذه النظرة ليست بالجديدة فقد سبقه إليها Weber ؛ إذ لما حاول أن يجيب عن تساؤل يتعلق بعالمية قيم الحضارة الغربية، عمد إلى البحث عن خصوصية هذه الحضارة بالنسبة لبقية الحضارات الأخرى في مرحلة ما بعد التنوير فحصرها في تلك الحركية الثقافية الداخلية التي احتضنتها أوربا وأفرزت العقلانية كأبرز ظاهرة حضارية عالمية فراح يعلن أنه " خارج أوربا، تظل العلوم والتقنيات عاجزة عن إقحام عقلانية الفكر والثقافة، فهي في مراحلها الأولية، خارج أوربا، لم نعثر على أثر للمنهج التجريبي والطب العقلاني والكيمياء العقلانية [...] حتى الفن و الإنتاج الجمالي لم يستطع مطلقا أن يصل إلى المستوى الذي حققته أوربا .خارج أوربا، لاوجود لموسيقى عقلانية، ولاوجود لفن العمارة القوطية، ولا لفنون جميلة تعتمد على قوانين الرسم المنظوري، ولا وجود لأدب مطبوع".[10]

إن مثل هذا التعداد لإنجازات الحضارة الأوربية الحديثة في مقابل تقرير لعجز شبه كلي للثقافات والحضارات الأخرى على النهوض يوحي بمفهوم ساكن للزمن الحضاري يتجلى في ضبط عقارب ساعة الصفر للحضارة الإنسانية ببداية عصر التنويروالثورة الصناعية. إلا أن مثل هذا الطرح لم يعد يفي بالمهمة المنوطة به والتي تسعى إلى إبراز هوية أوربية ليس فقط كهوية تبزّ الهويات الأخرى بل الهوية الأم التي أنارت العالم بنهضتها، فالحربان الكونيتان اللتان صدرتهما أوربا للعالم هزتا هذه الصورة من جذورها، فلم تعد تغري أحدا خاصة وأن التقدم التكنولوجي لم يعد حكرا على أوربا بعد الحرب العالمية الثانية، إذ برزت إلى الوجود الولايات المتحدة الأمريكية في حربها الباردة مع الاتحاد السوفياتي، إلى جنب النمور الآسيوية كقوى منافسة. ومع إقبال العالم على ما يدعى عولمة، استشعرت أوربا الحاجة في أن تتكتل اقتصاديا في مواجهة التكتلات العالمية. فعاد هاجس الهوية يؤرقها من جديد.

[8] Leclerc, Gérard, La mondialisation culturelle, PUF, Paris, 2000, p.327
[9] Ibid,, p.327
[10] Ibid, 328-329